

المدن الإسلامية بالأندلس

أ. سليمان مصطفى زبيس

مراجعة وتعليق أ. أحمد الحمروني

مقدمة في تمصير المدن :

إن تمصير المدن لهو علم تبرز فيه المسلمون في المشرق وفي المغرب. وقد ورثوه عن اليونان والفرس أكثر مما ورثوه عن الرومان . فأوضحوا قوانينه، وهذبوها، وأجروها على أسس وطرائق واحدة موحدة في كامل البلاد التي انتشر الإسلام فيها. وإن هذه الأحكام والقوانين لتمصير المدن قد سارت في صدر الإسلام على نسق الأمصار القديمة التي حلوا بها إلى أن توضح من جملتها أحكام جديدة إسلامية، تقدر لدى الحكام أيام الخلافة الأموية، فصاروا يتبعونها اتباعا كلياً، ويمتثلون لها امتثالاً كاملاً.

كانت التعليمات الرسمية في شأن تمصير المدن تصدر عن الخليفة عبد الملك بن مروان، وخصوصاً من لدن ولده هشام بن عبد الملك إلى قادة الجيش، وإلى الأمراء، وإلى الولاة، مع الإذن لهم بالشروع في إنشاء ما اقترحوا إنشاءه من المدن، مع ذكر الحاجة الباعثة على ذلك، والفائدة

مثال القيروان :

إنَّ أولَ مدينة إسلاميَّة أنشئت في المغرب الإسلامي هي القيروان، وذلك سنة 50 / 670. وكانت في بداية أمرها معسكرا، لم يكن فيه من بناء إلا الجامع وقصر الأمير وسوق المدينة. أما الناس فقد حلّوا في هذا البراح المسور في خيامهم، مرتبين في الأرض على حسب تقسيمهم القبلي، بين القبيلة والأخرى فاصل، هو الطريق. ثم بعد أن شعرت هذه القبائل بالاستقرار، أخذت تخرج من الخيام إلى البيوت المبنية، وإلى القصور. وتكوّنت، هكذا، الأحياء السكنية، مثل حي قريش، وحي الأنصار، الخ ...

وكان التجار وأهل الحرف، في بداية الأمر، ينصبون الستارة للاتقاء من الشمس والمطر، ينصبونها على قارعة الطريق، ويعملون تحتها إلى ما بعد صلاة العصر. وإذًا، يرفعون بضاعتهم وآلاتهم إلى منازلهم، وإلا أقاموا في مكانهم ليلا نهارا، إذا كان النقل متعذرا.

ومن المحقق أنَّ القيروان قد كانت في هذه الفترة الإنشائية الأولى تكسب شيئا فشيئا من خبرة التمسير ممّا جعلها في مقدمة المدن الإسلامية في هذا الباب، حتّى جاء الإذن من الخليفة هشام بن عبد الملك بجمع كلّ صناعة أو حرفة أو تجارة في مكان واحد، يتميز بها : التجارون على حدة، وكذلك الصّفّارون (النحاسون)، وكذلك الطيّبون، والعطارون، وكذلك المتّجرون في الأقمشة، والمتّجرون في المجوهرات، وهكذا دواليك، إلى أن انتظم كلّ ذلك داخل سوق واحدة معروفة مختصة بنوع من الصناعة أو التجارة دون سواها.

ثمَّ إنَّ هذا التقسيم قد أشفع بتنظيم آخر على الأرض اقتضى ألا توجد حول الجامع الكبير، الذي اختير موقعه في وسط المدينة، إلا المتاجر أو الحرف الرقيقة الهادئة النظيفة، حتّى لا يتأذى المصلّون في السير إلى صلاتهم، أو إبان الصلاة، أو بعد الخروج منها، بأي نوع من الأذى، رائحة كان، أم دخان، أم دويّا، أم طريقا ملطّخة، أم طريقا يتعثّر فيها المار لكثرة ما تراكم فيها من بضاعة أو آلات أو غير ذاك ممّا يضعه، بحكم الضرورة، أصحاب الدكاكين على قارعة الطريق.

أما الأسواق الصناعية فقد أبعدت عن الجامع تفاديا لما ينتج عنها من أنواع المضايقة

(1) عن تخطيط المدينة العربية ووظائفها راجع على سبيل المثال : محمد عبد الستار عثمان : المدينة الإسلامية . سلسلة عالم المعرفة (الكويت)، ع 128، أوت 1988. مسألة المدينة والمدينة العربية : مجلة الفكر العربي (بيروت) ع 29-30، نوفمبر - ديسمبر 1982.

للمصلين، وقد وضعت أسواق صغيرة لبيع مواد المعاش وأدوات المنزل في المنطقة الفاصلة بين الأسواق الكبرى والأحياء السكنية، تسهيلا للعائلات في اقتناء الخضار والبقول والفواكه، وكانت هذه الأسواق المعاشية تسمى كل واحدة منها (سوقة).

أما بعض الصناعات التي تحتاج إلى الشمس والهواء الطلق والقرب من أبواب السور، فقد عيّنت لها أماكن تحت السور، داخل المدينة، مثل الدبّاغين، والصّبّاغين، والحداكين، والتبّانين، وغيرهم.

وعلى هذا النسق التمصيري الذي يوفّر لجميع السكان الراحة والدعة والإقبال على العمل المثمر في الجوّ اللّائق والإطار الناجح، وعلى هذا النسق الذي قامت معاملة في القيروان، أخذ كامل المغرب الإسلامي ينسج في تمصير مدنه الجديدة وخاصة بالأندلس⁽²⁾.

تمصير الأندلس :

من المعروف أنّ هذه البلاد قد كانت تابعة لحكم القيروان المباشر، وأنها بقيت على هذا النظام السياسي إلى أن سقطت الدولة الأموية، وخرج أمير واحد منها، هاربا إلى المغرب، وهو عبد الرحمان الذي سمّي بالداخل عندما دخل الأندلس، فدانت له. وبذلك كان الانفصال عن القيروان، إلّا أنّ الأندلس بقيت مدّة طويلة بعد ذلك تحت سيطرة القيروان الثقافية. وعليها بقيت تنسج في جميع منشآتها، حتّى تكون بها الذوق والمنهاج الفنّان، فصارت تستقل شيئا فشيئا بفنونها الخاصة بها.

وستنعرّض إلى المدن الأندلسية التي تأسست في أيام الحكم الإسلامي، ومنها ما اندثر وانقرض، ومنها ما هو إلى هذا اليوم في عداد المدن الإسبانية القائمة الذات.

قلعة أيّوب :

إنّ أقدم هذه المدن هي مدينة قلعة أيّوب المسماة بالإسبانية (كَلَا تَيُود)⁽³⁾. أسّسها التابعي أيّوب بن حبيب اللّخمي في بداية رجب سنة 716 / 97. وذلك في المدة القصيرة التي

(2) م. الطالبلي : القيروان. دامت 4 / 1994.

(3) Calatayud بالإسبانية. وتقع في الشّرق الأعلى جنوب غربي سرقسطة في منتصف الطريق بينها وبين مدينة سالم.

كان فيها واليا على الأندلس بعد مقتل عبد العزيز بن موسى بن نصير⁽⁴⁾ ، وقد بقيت مدينة قلعة أيوب تحت الحكم الإسلامي إلى سنة 514 / 1120 ، إذ فتحها الحاكم النصراني الملك الإسباني ألفونسو الأول المعروف بالمحارب⁽⁵⁾ ، وكانت أحسن القلاع بشرقي الأندلس. وكانت مساحة المدينة داخل السور إذاك تبلغ حوالي أربعين هكتارا. ولم يبق اليوم في مدينة قلعة أيوب من آثارها الإسلامية سوى بعض من سورها الذي تدعمه جملته من الأبراج المربعة..

قلعة رباح :

ويلي هذه المدينة في الزمن مدينة قلعة رباح المسماة عند الإسبان (كَلَاتْرَافَا) لَتِيَاخَة أي القديمة⁽⁶⁾ . وهي على ما اتفق عليه من تأسيس تابعي آخر، اسمه علي بن رباح اللخمي. وقد

(4) ذكر عبد العزيز سالم أن أيوب بن حبيب اللخمي هو ابن أخت موسى بن نصير وهو قاتل ابن خاله عبد العزيز ابن موسى بن نصير سنة 714 / 95 بدافع الحسد، ومكث أهل الأندلس شهورا لا يجمعهم وال إلى أن أجمعوا على أيوب فرأسوه عليهم لسته أشهر فقط بداية من سنة 716 / 97. وفي الهامش تفاصيل عن أسباب القتل والتواطؤ عليه واختلاف التواريخ بين المصادر. (تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس. دار النهضة العربية، بيروت 1988 ص 114). ورغم قصر عهده أسس قلعته المعروفة. (نفس المرجع ص 134. أحمد المختار العبادي : في تاريخ المغرب والأندلس . دار النهضة العربية. بيروت د.ت ص 82). وذكر محمد عبد الله عنان من أحداث قلعة أيوب في عهد التجيبين حتى النصف الثاني من ق 3 / 9 أنه لما ثار بنو قسي في الثغر الأعلى ، واحتلوا قواعده، ثوّه للأمير محمد بن عبد الرحمان بأولاد عبد العزيز بن عبد الرحمان بن عبد الله بن المهاجر التجيبي، فاستدعاهم، وبنى لهم قلعة أيوب على مقربة من سرقسطة، وعيّن لضبطها عبد الرحمان بن عبد العزيز التجيبي، وبنى لهم قلاعاً حصينة في شريط ودروقة وفرتش، ونصّبهم لمحاربة بني قسي، وعقد لهم على قومهم، وأجرى عليهم أرزاق الغزو (دولة الإسلام في الأندلس . ط. دار سحنون، تونس 1990. م 1 ص 341). ولعلّها تهدّمت فأعاد بناءها لهم وإعمارها بهم. ومن الذين تولّوها منهم مطرف بن منذر التجيبي المعروف بأبي شورب الذي عقد حلفاً مع راميرو ملك ليون قبيل سنة 934 / 324 ضد عبد الرحمان الناصر. ولكن عبد الرحمان تمكّن من فتحها ، وقتل مطرف في السنة الموالية. (عنان : م 2 ص 406). وبجهتها طالت الحروب بين المأمون بن ذي النون وسليمان بن هود صاحب سرقسطة والثغر الأعلى وابن عباد صاحب إشبيلية . (عنان : م 3 ص 98). وولى سليمان بن هود قبيل وفاته ولده محمد قلعة أيوب. (عنان : م 3 ص 272). وفي أواخر ق 3 / 9 قويت شوكة التجيبين أصحاب القلعة فاستطاعوا الاستيلاء على سرقسطة على يد زعيمهم محمد بن عبد الرحمان التجيبي المعروف بالأنقر. (عنان: م 3 ص 265).

(5) هو ألفونسو المحارب ملك أرغون ابن رذمير نسبة إلى أبيه سانشو راميرز. استعان به عبد الملك بن هود صاحب قلعة أيوب عندما هاجمه المرابطون بقيادة علي بن كنفاط اللمتوني سنة 504 / 1111 . (عنان : م 4 ص 74). وبعد عشر سنوات فقط استولى عليها . (عنان : م 4 ص 103).

(6) قلعة رباح القديمة (Calatrava la vieja) أنظر وصف آثارها في : (عنان : م 5 ص 214 - 215). حكمها بنو ذو النون ، ومنهم موسى ثم ابنه الفتح سنة 873 / 260 . (عنان : م 3 ص 96. أنظر ياقوت : ج 3 ص 26).

بقيت تحت الحاكم الإسلامي إلى سنة 609 / 1212 في أيام الموحدين. ولكن موقعها على نهر يانة في مكان ميوء قد حمل الإسبان على إخلاء المدينة بعد ذلك بخمس سنوات. وفي الحقيقة فإن قلعة رباح لم تكن سوى مركز حربي اتخذه المسلمون من أجل قيمته الاستراتيجية، في منطقة عبور بين نواح مختلفة، ولم تبلغ من المساحة طوال مدة إقامة المسلمين فيها خمسة هكتارات⁽⁷⁾.

قناة عامر :

وفي سنة 136 / 753 أنشئت مدينة إسلامية ثالثة بالأندلس، وهي المسماة بقناة عامر. وذلك في جنوب قرطبة . وكانت قلعة اتخذها أحد زعماء العرب، وتحصن فيها . ولكن المؤرخين أهملوا ذكرها .

-
- (7) بها أقام ميسرة الفتى في جيش عبد الرحمان أثناء محاولته إخماد ثورة طليطلة سنة 219 / 834 . (عنان : م 1 ص 258 - 259). ثم أقفرت وخربت، فأرسل إليها الأمير محمد أخاه الحكم في جنده سنة 239 / 853 تحسباً لثورة طليطلة من جديد. (عنان : م 1 ص 292، 294). وخلصها سوارك بن حمدون القيسي من النصاري. (عنان : م 1 ص 328). وثار فيها سنة 300 / 913 الفتح بن موسى بن ذي النون مع حليفه الرياحي المعروف بأردنيلش، فأرسل إليها عبد الرحمان الناصر حملته الأولى بقيادة وزيره عباس ابن عبد العزيز القرشي. (عنان : م 2 ص 375)، وأقطعها القاسم بن حمود زميله زهير العامري. (عنان : م 2 ص 662). وفيها ظهر هشام المؤيد في عهد حكم إسماعيل بن ذي النون ت. 435 / 1043 لطليطلة وأعمالها. (عنان : م 3 ص 97). وتولاها حريز بن عكاشة من قبل يحيى بن ذي النون. (عنان : م 3 ص 104). ثم احتلها المرابطون على يد بطي بن إسماعيل حوالي سنة 501 / 1108 . (عنان : م 3 ص 349). وبالقرب منها رد الأمير المرابطي تاشفين بن علي القشتاليين عنها سنة 522 / 1128 . (عنان : م 4 ص 132 - 133). ثم سار بالأسرى والغنائم إليها وحصن أسوارها ثم عاد إلى غرناطة . (عنان : م 4 ص 135). وانتصر عليهم واليها فرج سنة 538 / 1143 . (عنان : م 4 ص 507). ويعد مقتل نونيو ألفونسو استولى عليها ألفونسو السابع ملك قشتالة في أواخر سنة 541 / 1147 مستغلاً ضعف المرابطين. (عنان : م 4 ص 371). وكون فيها الراهب رامون جمعية الفرسان الدينية للزود عنها سنة 557 / 1161 . (عنان : م 4 ص 519). ثم افتكها منهم الموحدون سنة 568 / 1173 . (عنان : م 5 ص 88) . وحاول ألفونسو الثامن مستعيناً بملكي ليون وناقارا استرجاعها فانهزم أمام الخليفة الموحي يعقوب المنصور في معركة الأرك سنة 591 / 1194 . (عنان : م 5 ص 199، 213، - العبادي : دراسات في تاريخ المغرب والأندلس. الأسكندرية. د.ت. ص 364) . لكن ألفونسو استرجعها سنة 609 / 1212 صلحا من يوسف بن قادم الأندلسي قائد الناصر الموحي عليها . (عنان : م 5 ص 292، 296-298).

إلبيرة :

أما مدينة إلبيرة⁽⁸⁾، فهناك من يعزو إنشاءها إلى التابعي المعروف حنش الصنعاني المتوفى سنة 100 / 718 ، دفين سرقسطة عند بعض المؤرخين، ودفين القيروان عند بعضهم الآخر. ولكن هناك من يعتبر أن إنشاء مدينة إلبيرة كان على يد أبي الخطار الكلبي والي الأندلس في الربع الأول من ق 8 / 2 ، إذ أحل بناحيتهما الجند الشامي نازعا إلى إنشاء حاضرة في الشمال الغربي من مدينة غرناطة بدل الأخيرة التي كانت بها النصاري واليهود. ولم يكونوا في ذلك الوقت على ولاء للولاء .⁽⁹⁾ هذا وقد أخذت هذه المدينة في الاضمحلال بعد سقوط الدولة الأموية بالأندلس، إثر الانتفاضات العنيفة التي قامت على رأس المائة 5 / 11⁽¹⁰⁾.

أقليش :

وفي سنة 160 / 775 ثار زعيم من زعماء العرب اسمه الفتح بن موسى بن ذي النون

(8) بالإسبانية Elvira ، مدينة رومانية قديمة كانت تسمى زمن الرومان Iliboris ، وكانت عاصمة للولاية المسماة باسمها. وكانت أيام الفتح الإسلامي في عهد طارق بن زياد مدينة كبيرة عامرة . (عنان : م 6 ص 21). وظلت كذلك إلى انهيار الدولة الأموية في أواخر ق 4 هـ / 10 م وبروز غرناطة جارتها . (ياقوت : معجم البلدان بيروت 1990 ص 289 - 290).

(9) هو أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي والي الأندلس للخليفة هشام بن عبد الملك . وهو الذي في سنة 125 / 742 أقطع جند الشام البيرة لتمزيق الفتنة بين الشاميين والعرب والبربر. (عنان : م 1 ص 126 ، م 6 ص 22).

(10) ومن الأحداث التي شهدتها البيرة أن عبد الرحمان الداخل أشاع منها دعوته سنة 138 / 756 مستعينا بجند الشام النازلين بها ، (عنان : م 1 ص 136 ، 151). وفيها انتصر عبد الرحمان على دحية الغساني صديقه الناصر عليه . (عنان : م 1 ص 186). وقد شهدت البيرة ثورة العرب منذ ولاية عبد الله بن محمد ابن عبد الرحمان سنة 275 / 888 . (عنان : م 1 ص 323) ، وذلك بقيادة يحيى بن صقاله القيسي الذي خلفه سوار بن حمدون القيسي في ثورته المستنكرة لسياسة بني أمية بقرطبة . (عنان : م 1 ص 328). ولم يلبث سوار أن غدر به خصمه القديم جعد والي إلبيرة. (عنان : م 1 ص 329). كما شهدت ثورة جعفر بن حفصون المنهزم أمام الخليفة عبد الرحمان الناصر سنة 300 / 913 . (عنان : م 1 ص 335 - 338 ، م 2 ص 375 - 376). وقد غزاها المنصور بن أبي عامر سنة 374 / 985 . (عنان : م 2 ص 543). ولما احتلها سليمان بن الحكم أقطعها لصنهاجة وبني زيري سنة 403 / 1013 . (عنان : م 2 ص 654 ، م 3 ص 123 - 124) ، وجوارها انتصر قائد المسلمين أبو سعيد عثمان بن أبي العلاء على القشتاليين سنة 718 / 1318 . (عنان : م 6 ص 118). ولكنها بداية من سنة 835 / 1431 تاريخ تجديد المعاهدة مع ملك قشتالة، بدأت تفلت من سلطة المسلمين . (عنان : م 6 ص 160).

على الأمير عبد الرحمان الأول (الداخل)، فأسس مدينة اسمها أقليمش، فصارت بعده قلعة من أبرز القلاع. وقد استولى عليها سنة 478 / 1085 الملك ألفونسو السادس بعد أن استولى على مدينة طليطلة (11).

(ينبع)

11) تقع مدينة أو قلعة أو حصن إقليمش (Uclés) شرقي طليطلة. وقد حكمها بنو ذي النون بداية من جدّهم الأعلى ذو النون بن سليمان مدّة الأمير محمد بن عبد الرحمان، ومنهم عبد الرحمان بن مطرف بن إسماعيل . (عنان : م 3 ص 95-96). وقد كان فيها للمرابطين انتصار على القشتاليين بقيادة الأمير تميم بن يوسف ابن تاشفين سنة 501 / 1108 يذكر بانتصارهم في الزلاقة . (عنان : م 3 ص 212، 401، م 4 ص 61-67، راجع رسالة ابن شرف عن فتح أقليمش في عنان : م 4 ص 533 - 538). وقد ذكر ابن الخطيب أنّ أقليمش سقطت نهائيا في أيدي القشتاليين سنة 543 / 1148. (عنان : م 4 ص 370).